توطئة:

يُعَدُّ موضوع مخارج الأصوات اللغوية الصامتة من أهم موضوعات علم الأصوات اللغوية، وحظي بعناية كبيرة من لدن علماء العربية لاسيما علماء التجويد ، وحظي بالعناية نفسها عند الدارسين المحدثين، وكان اهتمام علماء التجويد بمخارج الأصوات أكثر من غيرهم؛ إذ خصصوا كتباً مستقلّةً ببحوثهم الصوتية[i]، هي التي تعرف بكتب التجويد وأفردوا لمخارج الأصوات أبواباً خاصّةً بها.

والذي جعل علماء التجويد ينهجون هذا النهج هو ارتباط دراستهم بتجويد القرآن الكريم، ((فتجويد القرآن هو إعطاءُ الحروفِ حقوقَهَا، وترتيبُها مراتبِها، وردُّ الحرفِ من حروف المعجم إلى مخرجه وأصله، وإلحاقُهُ بنظيره وشَكْلِه، وإشباعُ لفظه، وتمكينُ النطق به على حال صيغته وهيئته، من غير إسراف ولاتعسُّف، ولا إفراط ولا تكلف))[ii]، فكان لزاماً عليهم أن يحددوا موقع كُلِّ صوتٍ من أصوات العربية، ويَعْرِفوا مخرج ذلك الصوت، يقول الدّانيّ: ((اعلموا أنَّ قطب التجويد وملاك التحقيق معرفة مخارج الحروف وصفاتها))[iii].

وحين أراد علماء التجويد تحديد مخرجِ كُلِّ صوتٍ، فكان عليهم أن يعتمدوا على ذائقتهم الصوتية، فاتَّبعوا الخليل بن أحمد الفراهيديّ (175هـ) في ذوقه الأصوات، وذلك بأن ينطق بالصوت ساكناً بعد إدخال همزة الوصل عليه، فحيثما يستقرُّ اللسان فثمّة مخرج الصوت[iv].

يقول الدكتور الحَمَد: ((وعلى الرغم مِنْ تحفُّظِ بعض المحدثين على هذه الطريقة في ذوق الحروف؛ بسبب احتمال التأثر بنطق الصوت السابق[v]، فإنها لا تزال مفيدة في تبيين موضع اعتراض النَّفَس وتحديد مخرج الحرف، حتى تتاح للدارسين وسائل آلية قد تكون أكثر دقة من هذه الطريقة))(vi).

والبحث في مخارج الأصوات المفردة وطبيعتها جعلنا نذكر ثلاث قضايا رئيسة كان للدكتور الحَمَد بحثٌ مستفيضٌ وواضحٌ فيها، هي: حدُّ المخرج، عدد المخارج، مخارج الحروف بالتفصيل.

أولاً- حدُّ المخرج:

المخرج لغةً: ((موضع الخروج. يقال : خَرَجَ مخرجاً حسناً، وهذا مَخْرَجُهُ))[vii]. وفي الاصطلاح؛ فهو: ((النقطة التي يتم عندها الاعتراض في مجرى الهواء والتي يصدر الصوت فيها))[viii].

وحدُّ المخرج عند الدكتور الحَمَد هو: ((النقطة المعينة من آلة النطق التي ينشأ منها الحرف أو يظهر فيها ويتميَّز، نتيجة لتضييق مجرى الهواء أو غلقه ثم إطلاقه))[ix]، ونجد هذا التأكيد في موضع آخر من كتبه كان فيه أكثر وضوحاً

حين قال: ((المخرج: موضع اعتراض النَّفَس في آلة النطق لإنتاج صوتٍ ما؛ لانَّ مخرج (الميم) عند علماء العربية والتجويد من الشفتين، وهو موضع اعتراض النَّفَس، أما موضع خروجه فهو من الخياشيم، وكذلك (النون)))[x].

ويتّفق المحدثون مع علماء العربية والتجويد في أنَّ مخرج (الميم) من الشفتين[xi]، وعليه فإن الدكتور الحَمَد في تعريفه هذا يُميِّزُ بين مخرج الصوت ومجراه، فصوت (النون) يتكون من طريق عارض في الفم، باعتماد طرف اللسان على ما فوق الثنايا (اللثة)، وجري النفس من الخيشوم (الأنف)[xii].

ثانياً- عدد المخارج:

وسأتناول مخارج أصوات العربية على هذا الترتيب التنازلي.

(الباء، والميم، والواو، والفاء) :

سار الدكتور الحَمَد على طريق سيبويه في الفصل بين مخرج الباء والميم والواو، ومخرج الفاء، فللثلاثة الأولى مخرج، ولحرف الفاء مخرج مستقل[xiii].

1. : **ب، م، و (غير المديّة):**

فمخرجها من بين الشفتين[xiv]، واضحٌ أنَّ الدكتور الحَمَد خصَّ الواو هنا بغير المديّة، وهو مذهب علماء التجويد المتأخرين[xv].

وجعل سيبويه هذه الثلاثة في مخرجٍ واحد، قائلاً: ((وممَّا بين الشفتين مخرج الباء، والميم، والواو))[xvi].

أمَّا الخليل؛ فذكر أنَّ ((ف ب م، مخرجها من بين الشفتين خاصة))[xvii]، فسيبويه أخرج الفاء منها، وأدخل بدلاً عنها الواو، وعملُ سيبويه أصوب من عمل الخليل[xviii]، ومَنْ جاء بعد سيبويه من علماء العربية ردَّد عبارته من غير زيادة تُذْكَر[xix] ونصَّ بعض علماء التجويد على أنَّ الواو المذكورة هنا يقصد بها غير المديّة، وهو ما أكَّده الدكتور الحَمَد كما تقدَّم، ومذهبهم هذا مبنيٌّ على إفراد حروف المد بمخرجٍ مستقل هو الجوف، وتخصيصهم الحروف الأُخر بمخارج محددة، من الشفتين في الواو، ومن وسط اللسان في الياء، يقول ابن الجزري: ((المخرج السادس عشر للواو غير المديّة، والباء، والميم ممَّا بين الشفتين))[xx].

أمَّا دارسو الأصوات المحدثون؛ فقد أقرُّوا ما جاء به العلماء القدامى، فالباء، والميم، والواو تنطق عندهم بضم الشفتين[xxi].

أمَّا لقب هذه الأصوات؛ فقد لقَّبها الدكتور الحَمَد بـ(الحروف الشفوية)، فقال: ((الحروف الشفوية: ب، م، و، غير المديّة))[xxii]

وهي تسمية سيبويه نفسها[xxiii]، وتابعه عليها جمهور علماء العربية[xxiv]، واتفق أغلب المحدثين على هذه التسمية[xxv] إلاّ أنَّ قسماً منهم لم يكتفِ بالشفتين وحدهما مخرجاً للواو – كما وصفها سيبويه – ، إذ أوضحوا أنَّ الواو يجب أن تكون من أقصى الحنك؛ لأنَّ أقصى اللسان يقترب من أقصى الحنك عند النطق بالواو، فتوصف بأنَّها شفوية حنكية قصية[xxvi].

ممَّا تقدَّم يظهر أنَّ الدكتور الحَمَد قد اتَّفق اتفاقاً تامَّاً مع سيبويه في مخرج هذه الأصوات، وفي تلقيبها بالشفوية أيضاً على الرغم من تحفظ بعض المحدثين على هذا اللقب بزيادة وصف آخر له لوجود الواو، ولكن يبدو أنَّ الدكتور الحَمَد يضم صوته إلى صوت الدكتور كمال بشر الذي نادى بأنَّ وصف سيبويه للواو ليس خطأ؛ لأنَّ للشفتين دوراً كبيراً في نطقه[xxvii] ، وزاد الدكتور حسام النعيمي هذا الأمر دقةً ووضوحاً، إذ بيَّن أنَّ سبب تسمية القدماء لهذه الأصوات بالشفوية هو وضوح استدارة الشفتين مع الواو، وعدم اقتراب اللسان من الحنك بصورة واضحة[xxviii]، فضلاً عن أنَّ العلماء العرب غالباً ما يشيرون إلى الموضع الأظهر والأوضح وهم يبينون مخارج الأصوات[xxix]، فجاءت تسميتهم لهذه الأصوات بالشفوية.

2. : **(الفاء):**

اتفق الدكتور الحَمَد مع سيبويه في مخرج هذا الصوت[xxx]، يقول سيبويه عنه: ((من باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العُلى مخرج الفاء))[xxxi]، ولم تتغيَّر هذه العبارة عند علماء العربية[xxxii]، ولا علماء التجويد[xxxiii]، ولا المحدثين من دارسي الأصوات[xxxiv].

أمَّا لقبُ هذه الأصوات؛ فلقَّبها الدكتور الحَمَد بأنَّها أسنانية شفوية، بقوله: ((الأحرف الأسنانية الشفوية: ف))[xxxv]، وهذا التسمية هي نفسها عند سيبويه؛ لأنَّ سيبويه قد ذكر أقسام الأسنان، ومنها: الأضراس، والثنايا، والضاحك، والناب، والرباعية[xxxvi]، والثنايا مفردها ثنية، وهي السن، وثنايا الإنسان في فمِهِ أربع: ثنتان من فوق، وثنتان من أسفل[xxxvii]، وتقسيم سيبويه للأسنان أشاد به المستشرق الألماني(شاده) قائلاً: ((نشاهد غاية التفصيل مثلاً في تقسيمه للأسنان))[xxxviii].

فأطراف الثنايا العليا هي الأسنان العليا، يقول الدكتور أحمد مختار عمر عن إنتاج صوت الفاء بأنَّه: ((يتم إنتاجه عن طريق ملامسة الشفة السفلى للأسنان العليا))[xxxix]، ولقبُ الشفوي الأسناني عليه أكثر المحدثين[xl]

(ظ، ذ، ث):

حدد الدكتور الحَمَد مخرج هذه الأصوات بقوله: ((فالمخرج بين طرف اللسان وبين أطراف الثنيَّتين العُلْيَين، ويستند طرف اللسان في الوقت نفسه على أطراف الثنيَّتين السفليين))[xli].

وبيِّنٌ من كلامه أنَّ للثنايا العليا والسفلى وظيفة في إنتاج هذه الأصوات.

وكان سيبويه قد ذكر مخرج هذه الأصوات، فقال: ((وممّا بين طرف اللسان وأطراف الثنايا مخرج الظاء، والذال، والثاء))[xlii].

ووقف علماء العربية القدامى إزاء قول سيبويه هذا، وتحديد جهة الثنايا المقصودة بقوله مواقف متعددة، فحافظ قسمٌ منهم على عبارة سيبويه من دون تخصيص جهة الثنايا[xliii]، وراح بعضهم إلى تحديدها بالثنايا العليا، وهو مذهب المبرِّد، إذ يقول: ((ومن طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا مخرج الظاء، والثاء، والذال))[xliv] وتابعه أكثر علماء التجويد على هذا التحديد[xlv]، وذهب ابن الطحَان إلى ذكر الثنايا العليا والسفلى معاً، فقال: ((ومن طرفه، وما يليه من أطراف الثنايا، عُلياها وسُفلاها، تخرج الظاء، والذال، والثاء